سوسيولوجيا

حنان عسلي شهابي المرأة الفلسطينية مناضلة في زمن الانتداب

إعداد زياد منى

حنان عسلي شهابي: المرأة الفلسطينية في عهد الانتداب البريطاني. دار منشورات الرمال. قبرص 2016. 412 صفحة.

الحديث عن حقوق المرأة الفلسطينية ومساهماتها في الحركة الوطنية الفلسطينية إبان الاحتلال الأنغلو- صهيوني موضوع يطول وتختلف أساليب مقارباته من مؤلف إلى آخر. في الواقع، ثمة عدد قليل من المؤلفات التي تتناول مساهمات المرأة الفلسطينية في مختلف مناحي الحياة إبان الاحتلال الإنغلو- صهيوني، ومنها على سبيل المثال مؤلفات «التاريخ الشفوي» التي أشرفت عليها الباحثة الفلسطينية فيحاء عبد الهادي وأسهمت فيها. ومن المؤلفات المكتوبة بغير اللغة العربية، كتاب للعالمة الأميركية إلِن فلَيْشْمَن صدرت ترجمته العربية في نسخة رقمية، وسيبصر النور قريباً في نسخة ورقية.

يأتي كتاب «المرأة الفلسطينية في عهد الانتداب البريطاني» («منشورات الرمال» ـ قبرص) عن وضع المرأة الفلسطينية وأدوارها في بلادنا المحتلة، خلافاً للصور النمطية عن المرأة الفلسطينية إبان الاحتلال الإنغلو-صهيوني، وهي «المرأة المقموعة المتخلفة التي تعيش في عالمها الخاص»، و«المرأة الريفية الكادحة المرهَقَة»، وأخيراً المرأة المدينية، لكن المرفهة، الناشطة في الحقل الاجتماعي، لكنها الساكنة البرج العاجي، الذي لا ترى من شرفته هموم نساء الطبقات الكادحة. تشير الكاتبة حنان عسلي شهابي، إلى إحدى صور اضطهاد المرأة المتمثلة في أنّ الفتاة كانت تتلقى من أمها تعليمات «الأخلاق القويمة»، ومنها كيفية الجلوس والمشي واللباس والكلام والضحك واللعب... وهذه الأمور وغيرها لا تزال قائمة في الطبقات أو الفئات المحافِظة والريفية. في الحقيقة، إننا نرى أن بعض هذه الأشكال لا تزال قائمة في المجتمع الفلسطيني، لكن بمقادير متباينة وأقل مما كانت عليه إبان فترة هيمنة الاستعمار.

تخصص الكاتبة الفصل الأول من مؤلفها الذي قسمته إلى جزءين أولهما «الأدوار الاجتماعية والثقافية والسياسية في فترة الاحتلال»، للتعريف بواقع المرأة الفلسطينية الاجتماعي في فترة موضوع العمل، وبالتقاليد والأعراف السائدة «الخانقة» في كل من المدينة والريف والبادية التي كانت تتحكم في حياتها وتعيق تقدمها.

الفصل الثاني مخصص لمسألة تعليم المرأة في العهد العثماني، ومن ثم تحت الاحتلال وسياساته التعليمية ومناهجه وأنواع المؤسسات التعليمية العامة والخاصة، والمرتبطة بالإرساليات الأوروبية التي تأسست في البلاد عام 1848، وأدخلت المناهج العلمانية في الحياة التعليمية، وتأثير ذلك في مكانتها الاجتماعية. في الفصل الثالث من الجزء الأول، تنتقل الكاتبة إلى نهوض الحركة الثقافية في فلسطين المحتلة ومدى إفادة المرأة المدينية منه، مشددة على أن فلسطين كانت قبل الاغتصاب الصهيوني من أكثر الدول العربية تطوراً من المناحي الاجتماعية والثقافية والاقتصادية. وقد شهدت انتعاشاً في مجالات الفنون والأدب والموسيقى. بين عامي 1911 و1948، تأسست في فلسطين 161 جريدة ومطبوعة، وعشرات الكُتبيات. كما خصت الكاتبة أقساماً من هذا الفصل للتوقف عند الأدوار السياسية للمرأة الفلسطينية الفردي والعفوي والمنظم، إذ بدأ تأسيس المنظمات النسائية عام 1921، للمساهمة في مختلف المناحي ومنها الخيري والسياسي وحتى العسكري. كما تولي الكاتبة الاهتمام لنشاطات محددة مثل الصالونات الثقافية، والكتابات الصحافية والإذاعية والفنون التشكيلية والشعر والتطريز وصناعة القش والفخار وغير ذلك من الفنون الشعبية الموروثة.

ينتهي الجزء الأول بالفصل الرابع والأخير «الدور السياسي للمرأة في عهد الانتداب البريطاني والحركات النسائية الفلسطينية»، وتتحدث فيه عن نشاطات المرأة الفلسطينية، العفوي والفردي والمنظم، مؤسّسة بذلك مقدمة لنشوء الحركة النسائية الفلسطينية. تقسم الكاتبة نشاط المرأة الفلسطينية في هذه الفترة كرونولوجياً (1920 ـ 1928)، و(1929 ـ 1934)، و(1935 ـ 1938)، وأخيراً الفترة الممتدة من عام 1939 إلى عام 1948. وقد أوضحت شهابي، وإن على نحو ضمني، أنّ ذلك التقسيم الكرونولوجي يرتكز إلى النشاط السياسي الثوري العفوي والمنظم في الشارع الفلسطيني.

قسمٌ مهمٌ من هذا الفصل خصصته الكاتبة للحديث المسهب في النشاط النسائي الفلسطيني المنظم في اتحادات ومنظمات وجمعيات ومؤتمرات وما إلى ذلك. هكذا نوّهت بـ «الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني»، و«جمعية التضامن النسائي»، و«جمعية التقدم النسائي»، و«جمعية زهرة الأقحوان»، و«اتحاد العاملات الفلسطينيات»، والجيش النسائي التطوعي المساند. الجزء الثاني من المؤلف «رائدات متميزات من فلسطين»، خصصته الكاتبة للناشطات وسيرهن ومجالات عملهن النضالي، وهي أكثر أقسام هذا المؤلف إثارة. الفصل الأول من هذا الجزء مخصص للحديث عن رائدات الصحافة كساذج نصار، وماري شحادة، وفايزة عبد الحميد، ورائدات الفنون التشكيلية ومنهن زلفى السعدي، ونهيل بشارة، وفاطمة المحب وجوليانا ساروفيم. يتضمن الفصل الثاني تراجم لرائدات في الأدب مثل فدوى طوقان، وعنبرة سلام الخالدي، وفاطمة اليشرطية ونجوى قعوار.

كانت فلسطين من أكثر الدول العربية تطوراً قبل الاحتلال

أما الفصل الثالث، فقد خصصته الكاتبة للحديث في تراجم رائدات الحركة النسائية الفلسطينية ومنهن مهيبة خورشيد ومتيل مغنم وزليخة الشهابي وأديل عازر وعصام الحسيني. تنهي شهابي بحثها بتراجم رائدات في بناء المؤسسات التربوية الخيرية وهن نبيهة ناصر، وإليزابيث ناصر، وهند طاهر الحسيني. من الأمور الأخرى التي تستدعي الذكر في هذا العرض، هي منهجية عمل الكاتبة والمراجع التي ارتكزت إليها، آخذين في الاعتبار مرور عقود طويلة على مرحلة موضوع البحث، ورحيل قسم كبير من الأجيال التي ساهمت في تلك النشاطات أو كانت شاهدة عليها، وكذلك اختلاط الذاكرة للأسباب المعروفة ومنها التقدم في السن وما إلى ذلك من المعوقات. وكان على الكاتبة الاستعانة بكل ما توافر من مرجعيات تشهد على مدى مشاركة المرأة الفلسطينية، من مختلف طبقات المجتمع، في مجالات النضال المادي والمعنوي، وهذا يعني ضم الرواية والقصيدة والمقالة والسير الذاتية إلى المرجعيات، إضافة إلى أهمية دورها العائلي المتمثل في دعم الزوج وتربية البنات والأبناء وغير ذلك من المهام الكثيرة التي كانت ملقاة على عاهل المرأة العربية، ولا تزال كذلك، إلى حد ما. هذا المؤلف، يثري المكتبة العربية حول نضالات المرأة الفلسطينية إبان الاحتلال الأنغلو-صهيوني ويوضح أنّ مجالات تلك النضالات كانت متعددة، بما يمنح المرأة الفلسطينية المزيد من الدعم والاعتراف بدورها في مختلف مجالات الحياة.

سياسة

كريستوفر فيليبس معركة السيطرة على سوريا

كريستوفر فيليبس: معركة السيطرة على سوريا - الصراع الدولي في الشرق الأوسط الجديد.
Christopher Philips, The battle for syria: international rivalry in the new middle east. yup, new haven 2016. 304 pp. 2016.

لعل أحد أكبر أخطاء المراقبين و«الخبراء» في أمور جنوب المتوسط وشرقه، يتمثل في وضع إجابات جاهزة عن أسئلة تتعلق بأمور متحركة بسرعة مدهشة. هناك كثير من «أنبياء» السياسة والخبراء وغيرهم أخفقوا في تنبؤاتهم فارتدّ كثير منهم! لسنا هنا في حاجة إلى سردها، إذ أن المتابع يدرك حجم الخداع والتضليل والكذب والوهم والتمنيات التي استحالت «حقائق»، وأن فقط قلّة قليلة من المحللين، لا يتعدى عددهم أصابع اليد، نظرت إلى موضوع هذا المؤلف أي المأساة السورية، بالعمق المطلوب.

الكاتب كريستوفر فيليبس، هو أستاذ العلاقات الدولية في الشرق الأوسط في «جامعة كوين ماري» اللندنية، وعضو في برنامج «تشتم هاوس» (The Royal Institute of International Affairs، Chatham House المعهد الملكي للعلاقات الخارجية) للشرق الأوسط وشمالي أفريقيا. في مؤلفه «معركة السيطرة على سوريا - الصراع الدولي في الشرق الأوسط الجديد»، حاول النظر إلى المادة من منظور أكثر شمولية من غيره من «الخبراء». نقول حاول لأنه أفلح في كشف خفايا وحقائق كثيرة لها علاقة بالمأساة السورية، لكنه أهمل بعض العوامل المهمة. يحوي المؤلف معلومات كثيرة لا يعثر المرء عليها في وسائل التضليل/الإعلام، ما يعكس موقع الكاتب الذي يمنحه فرصة الاطلاع على تفاصيل مهمة ذات صلة، نترك للقارئ فرصة الاطلاع عليها بنفسه في صفحات المؤلف.

ثمة رسائل كثيرة في المؤلف، لكننا نرى أنّ الرسالة الأساس التي وجب التشديد عليها في هذا العرض قناعة الكاتب بأن «الأزمة» السورية ليست محلية وإنما نتاج صراع قوى عديدة حاولت الدخول في مغامرة وراثة جنوب المتوسط وشرقه، بعد انحسار فعالية واشنطن في المنطقة بسبب خسارتها في العدوان على العراق وتوجه الإدارة الجديدة إلى ترك أمور حل مشاكل المنطقة للاعبين المحليين، دوماً من منظور الكاتب.

من الأمور الأخرى التي يشدد عليها الكاتب عدم إدراك القوى المحلية، وهي تركيا وقطر والسعودية، التي انخرطت في الصراع في سوريا وعليها وأججت الحرب فيها، معنى انسحاب واشنطن التدريجي من المنطقة والتوجه شرقاً لمواجهة التحالف الجديد بين الصين وروسيا وإيران. فتلك القوى ـ في ظن الكاتب ـ تصرفت على أساس أن واشنطن لم تتغير ولذا عملوا على تحويل ما رآه من «ربيع عربي مسالم»، إلى نزاع مسلح، فارتكبوا أخطاءً مكلفة للغاية. وهذا ما قاده بالضرورة إلى تأكيد أن الصراع في سوريا لم يكن محلياً منذ البداية، وأن لاعبين عديدين انخرطوا فيه وأوصلوا الأحوال في المنطقة إلى ما هي عليه. في ظني أن الكاتب هنا يبالغ في استقلالية قرار مشيخات الخليج وتركيا عن واشنطن في هكذا أمور ذات أبعاد استراتيجية تؤثر في موقع الولايات المتحدة العالمي، وأن الحقيقة هي أن الأخيرة وجهت أوامرها لهم بالتحرك! وعندما تأمرهم بالتوقف فسينصاعون فوراً.

أما الادعاء بأن واشنطن لم تنخرط مباشرة في ذلك الصراع، فينفي الكاتب صحته مشيراً إلى مطالبة الرئيس أوباما «على بشار الأسد أن يرحل».

الحرب في سوريا وعليها لا تزال مستمرة، وستبقى كذلك في المستقبل المنظور وإن بحدة متفاوتة، لكن الأطراف المنخرطة في الصراع، من منظور الكاتب، وهي قطر والسعودية وتركيا وإيران وحزب الله وروسيا والأردن، إلى حد ما، كلها خسرت. الخسارة الأكبر كانت تركيا التي وصلت الأحوال فيها إلى ما هي عليه، وقطر التي دمرت سمعتها وفقدت صراعها (المفترض) مع السعودية على دور القيادة في المنطقة. أما السعودية فكانت خسارتها، بحسب رأي الكاتب، أقل لأنها تمكنت من تقييد ما رآه من تأثير إيران في سوريا.

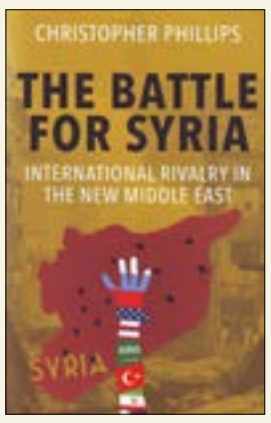

يبالغ الكاتب في استقلالية قرار مشيخات الخليج وتركيا عن واشنطن

رغم التفاصيل المهمة التي يوردها الكاتب عن تطورات الصراع في سوريا وعليها، إلا أنه تجنب الحديث في مخططات المؤسسات الحاكمة في واشنطن للمنطقة بعد إخفاقات سياسات بوش الابن. الإتيان إلى البيت الأبيض برئيس «مسلم» واندلاع أكثر من «ربيع» عربي حققت فيه الحركات والأحزاب الإسلامية انتصارات مهمة في البداية (مصر وتونس) واستمرار تقدم «حزب الإخوان المسلمين» في تركيا المتمثل بحزب العدالة والتنمية، ليست من المصادفات. إذ أن نهوض الفكر الوهابي في المنطقة لم يتم فجأة. واشنطن ضالعة حتى النخاع في مخطط واضح المعالم، هو بناء تحالف إسلامي «سني» رجعي لمواجهة الإسلام «الشيعي» المعادي لها.

كل ما نخشاه فعلاً أنّ هذه «حرب المئة عام» (1337-1453) بنسختها المشرقية. الانقسام الحاد عَقِدِيّاً في القواعد سيجعل من ردم الهوة التي فتحها الفكر الوهابي التكفيري في عقول أجيال عديدة، غاية في الصعوبة. وإعادة تثقيف أجيال جديدة على المحبة والوئام والتعايش المشترك وتأسيس الأوطان على أسس قومية ليس بالأمر السهل، لكنه الحل الوحيد.